المتنبي في ديوانه

بمناسبة ذكراه الألفية

للأستاذ عبد الله كنون الحسني

بقية ما نشر في العـــــــدد الماضي

وقال المتنبي:

يترشّفنَ من فمي رشفاتٍ   هنّ فيه أحلى من التوحيد

فقالوا: لو كان يجد للإيمان في قلبه حلاوة لما جعل رشفاتهن من فمه أحلى من التوحيد. ونقول: إن البيت قد روى هكذا: هن فيه حلاوة التوحيد، وهي نسختنا أيضاً. وقد قيل إن أفعل غير مراد به التفضيل؛ وقيل أيضاً إن التوحيد نوع من التمر! وعلى الرواية الثانية يكون شبه الترشيف بحلاوة التوحيد ولا حرج في ذلك، ومثله مستساغ في مذهب الشعراء. هذه ثلاثة أبيات ليس في شعر المتنبي أكثر غلواً منها، ومع ذلك فهي لا ترد علينا كما رأيت. أما مذاهب عقليته فنشير إليها حيث يقتضي المقام ذلك؛ وليس هناك ما يدل على أنها من ذات نفسه ومضمر قلبه أصلاً؛ وأما مبالغاته في المدح فيصل بها إلى حد المقارنة بين نفسه وممدوحيه وبين الأنبياء

والأمر الأول لاشك لا يؤاخذ عليه لأنه حتى على فرض كونه مما يؤثر في صحة الإيمان فمن أين لنا أنه كان يعتقده؟ وإلا فحاكي الكفر ليس بكافر، وعلى أنه اعتقده فمن أين لنا أنه استمر على اعتقاده إلى أن مات؟ وعلى كل حال فالحكم على المتنبي بضعف العقيدة لبعض أفكار فلسفية تضمنها شعره يجعلنا لا نقبل في حظيرة الاسلام أكثر علماء الاسلام من الذين لهم مذاهب فلسفية وأفكار حكمية. على أنه ما من قول موهم في شعر المتنبي إلا وقد وجد في شعر غيره ما هو أكثر إيهاماً منه، فلماذا لم يحكموا على غيره من الشعراء بذلك الحكم الجائر؟ ولولا ضيق المجال لعقدنا مناظرة بين أقواله وأقوال غيره من الشعراء في هذا الموضوع حتى يرى القارئ أن المتنبي لا يزيد على غيره إن لم يقصر في ذلك. وإليك قوله مثلا في كافور:

ألا فتى يُوردُ المندىّ هامته   كيما تزول شكوك الناس والتهم
فإنه حجة يؤذي القلوبَ بها   مَن دينه الدهر والتعطيل والقدم

فإنه هو عين قول ابن الرومي لصاحب لحية طويلة في صورة أخرى من السخرية:

أرْعِ فيها للموسى فإنك منها   ــ يشهد الله ــ في أثام كبير
أيّما كوسج يراها فيلقى   ربّه بعدها صحيحَ الضمير
هو أحرى بأن يشكّ ويغرَى   باتهام الحكيم في التقدير

فلماذا أخذ قول المتنبي دليلا على ميله للتعجيل دون قول ابن الرومي الذي منه استمد المتنبي ذلك المعنى؟

كذلك الأمر الثاني، لم يكن المتنبي بارعا فيه ولا بأول ولا آخر؛ فما زال الشعراء يشبهون ممدوحيهم بالأنبياء بل يجاوزون التشبيه إلى ما هو فوقه، وذلك معروف من مذهبهم قديماً وحديثاً، ولا نعني أنه لا بأس به شرعا، ولكنا نريد أن نقول إن المتنبي لم ينفرد به ولم يطعن أحد بمثله على غيره من الشعراء في عقيدته؛ وقد وجد ذلك في صدر الاسلام ووسطه ويوجد الآن في هذا العصر، فمن قول جرير يمدح عمر بن عبد العزيز:

أتى الخلافة أو كانت له قدراً   كما أتى ربه موسى على قدر

ومن قول أبي نواس في الأمين:

سخر الله للأمين مطايا   لم تسخر لصاحب المحراب

ومن قول أمير الشعراء المرحوم أحمد شوقي بك يذكر طائرات فرنسا:

لسليمان بساط «واحد»   ولكم ألف بساط في الفضاء

فهل هؤلاء الشعراء لا يضربون مع المتنبي على وتر واحد في هذه النغمة؟

والخلاصة أن المتنبي كغيره من الشعراء صدرت عنه أقوال ظاهرها الاستخفاف بأمر الدين ولكن لا نحكم بمقتضاها أنه فاسد العقيدة حتى نحكم على غيره من الشعراء بله العلماء أنهم كذلك، فإن بعضهم أسوة بعض في هذا الأمر

* * *

وأما أخلاقه فلسنا بحاجة إلى التنويه بما كان عليه من علو الهمة والشجاعة والصدق والوفاء، فإن شعره مملوء بشواهد ذلك حتى لقد بلغ من علو الهمة أن عابه خصومه بهذا الخلق، فمنهم من لقبه بالمتنبي لتشبيهه نفسه بالأنبياء، ومنهم من جعل ذلك مرضا

نفسيا أشبه ما يكون بالجنون . والواقع أن المتنبي كان يسرف في التعظّم وإن كان له سلف في ذلك ، فانظر إلى قوله :

أى محل أرتقى أى عظيم أتقى
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتى كشعرة في مفرق

فانك لا تجده يختلف عن قول هبة الله بن سناء الملك :

وفرطُ احتقاري للأنام لأنني
أرى كل عار من حلى سوددى سدى

أرى الخلق دونى إذ أرانى فوقهم ذكاءً وعلماً واعتلاء وسؤددا

وبلغ من شجاعته أن لاقى الموت المحقق فراراً من الغدر . وبلغ من صدقه أن قال عنه على بن حمزة إنه ما كذب قط ، وقال هو :

ومن هوى الصدق في قولى وعادته
رغبتُ عن شعرٍ في الرأس مكذوب

وبلغ من وفائه أنه رغم ما عامله به سيف الدولة من سوء العشرة ، لم يبرح ذاكراً له متشوقا اليه ؛ وقد كان يمدح كافورا فيصدر بمدحه ويكثر التأسف على فراقه . ومن شدة وفائه أنه وفى للشيب فلم يقدر على مفارقته إلا حزينا باكيا كما قال :

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا
لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

هذه أخلاق المتنبي ليس فيها مغمز لأحد ؛ وقد وصف بها نفسه في شعره ، وجاءت سيرته دليلا على صدقه في هذا الوصف . إلا أن الطاعنين عليه لم يعدموا ما يلمزون به أخلاقه أيضاً فقالوا : إنه كان بخيلا ، وبخيلا جداً ، واستدلوا على ذلك بحكايات ملفقة تشم منها رائحة الوضع كما يقول المحدثون ، وبأبيات من شعره إن لم نقل إنها محرفة عن موضعها فلا أقل من أن نقول إنها لا دلالة فيها على ما زعموه أصلا . فأما تلك الحكايات فقد كفانا الأستاذ المازنى أمرها إذ بين ما فيها من زور وما تحتويه من بهتان[1] ؛ وأما أبيات الشعر فانا ناقلون مما هو نص من شعره في نفى هذه التهمة عنه ثم مقارنون بينه وبينها ليظهر خطأ الاستدلال بها واضحاً لا خفاء فيه

قال المتنبي يستنجز كافورا ما وعده به من الولاية :

أبا المسك هل فى الكأس فضل أناله
فانى أغنى منذُ حين وتشربُ

إذا لم تنط بى ضيعةً أو ولاية فجودك يكسونى وشغلك يسلب

وقال فيه أيضاً :

وهل نافعى أن تُرفع الحجْب بيننا
ودون الذى أمّلتُ منك حجابُ

فهذا المتنبي يقول إن بغيته فى فضلة من الكأس الذى يشرب بها كافور « يعنى الولاية » لا المال . وإن كل ما وصل من عطاء كافور لم يرفع الحجب بينه وبين ما أمله منه ، ولا شك أن ذلك شيء غير المال . ومن كانت هذه منزلة المال عنده ، لا يحفل به ولا يجعله شيئاً مما أمله ، فكيف يوصف بالبخل ويتهم بالحرص لو كان هناك انصاف ؟ وقد صرح بما أخذ ضمناً من هذه الأبيات فى قوله

وما رغبتى فى عسجد أستفيدهُ ولكنها فى مفخر أستجدهُ

وقال فى شكره لمن وهب له هبة :

وما شكرتُ لأن المال فرحنى سيّان عندى إكثار وإقلال
لكن رأيت قبيحاً أن يُجاد لنا وأننا بقضاء الحق بُخّال

وفى مطلعها مايشير إلى صدق قوله « فجودك يكسونى وشغلك يسلب » وهذا هو المطلع :

لا خيل عندى أهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال

ثم هل بقى من تقبيح البخل أكثر من جعله من مبطلات الصلاة كما قال :

فتى لا يُرجّى أن تتمّ طهارةٌ لمن لم يطهر راحتيه من البخل

فهذه الأبيات وسواها كثير مما هو نص فى المراد ، كيف يصح إغفالها والتمسك بمثل قوله دليلا على بخله :

فلا مجدَ فى الدنيا لمن قل ماله ولا مال فى الدنيا لمن قل مجده

فهل هو إلا مقرر لحقيقة واقعية ، وهى أن المجد مهما كان رفيعاً لااعتبار له إلا بالمال ، وقد أجمع الناس على ذلك فما يحترمون إلا صاحب المال ولو كان دنيئاً ؟ ولكن ألا تراه مع ذلك قد عقب بأن المال وحده لا اعتبار له عند العقلاء ولا بد من خصال المجد التى هى أساس الاعتبار ؟

وأغرب من ذلك الاستشهاد على بخله بمثل قوله :

(١) حصاد الهشيم ص ٢٢٢ وما بعدها

من يطلب المجد فليكن كعليّ م يهب الألف وهو يبتسم

وقوله:

تهلل قبل تسليمي عليه وألقى ماله قبل الوساد

وهذا لو صح دليلاً على بخل الشاعر لعددنا كل شعراء العربية بخالاً، فإنه لكثرة ما تدوول هذا المعنى، صار لا يخلو منه ديوان شاعر

وإننا لا ننفي أن المتنبي كان جماعة للمال، ولكنه لم يكن يفعل ذلك إلا للاستعانة به على مقاصده كما يصرح هو بذلك في شعره لاسيما وهو يعلم من أحوال عصره أن الاعتبار كله إنما هو لأهل المال خاصة.

وانظر إلى حكاية البطيخة التي أعطى صاحبها خمسة دراهم فلم يبعها له وباعها بثلاثة لمن يملك مائة ألف دينار لمجرد كونه يملك مائة ألف دينار! فانصرف وقد علم أنه لا يتم اعتبار الناس له إلا إذا جمع مائة ألف دينار؛ وقد كان كذلك، وكل ما صدر عنه في هذا الصدد إنما هو من قبيل المثل الفرنسي Quand je ferai mon million,

وكم بين من يطلب المال ليستعين به على قضاء حقوقه — وأي حقوق هي! إنها لتزرى بحقوق الطغرائي التي يقول فيها:

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاء حقوق للعلا قبلي

وبين من يطلبه لمجرد الحرص عليه وشهوته التي هي مرض من الأمراض، فإن هذا هو البخيل حقاً لا ذاك!

والواقع أننا وجدنا المتنبي صادقاً في كل ما وصف به نفسه من خلال المجد، فلا يصح أن يكذب في هذا الأمر لمجرد حكايات الله أعلم بحالها وحال من نحلها إياه! كذلك وجدنا شعره طافحاً بمدح الكرم وذم البخل في أبيات صريحة لا غبار عليها فلا يجوز أن نغض الطرف عن ذلك ونلجأ إلى الفرض والتخمين محملين بعض ألفاظه ما لا دلالة لها عليه لنصحح تهمة أنه كان بخيلا!

وإذ قد فرغنا من الكلام في النقط الثلاث التي عنينا بها هنا، فلنتساءل ماذا كان مطلب المتنبي في الحياة ما دام لم يكن يطلب المال لذاته؟

والجواب أن المتنبي كان طالب دولة ولاشك، وكان لا أعدى إليه من أصحاب الدول في عصره، فهو لو تمكن منهم لما رحمهم، بل نرحم شبابه من أن يرحمهم على حد تعبيره هو:

لا يخدعنك من عدوٍّ دمعُه وارحم شبابك من عدوٍّ ترحمُ

وقد كان يرى المجد في ضرب أعناق الملوك:

ولا تحسبنّ المجد زقاً وقينةً فما المجد إلا السيف والفتكةُ البكر
وتضريبُ أعناق الملوك وأن تُرى لك الهبواتُ الكثر والعسكر المجر

فلو أن الفلك جرى بموافقة سعيه لمضى بدول عصره جميعاً ولو دولة الخلافة، وأقام على أنقاضها دولة متنبية من الطراز الذي يقول فيه أبو الطيب:

أعلى الممالك ما يبنى على الأسل

وما أصدق ذلك الذي قال على لسان كافور(1) وقد سوّر أنه سئل لماذا لم ينل المتنبي ما طلب منه من الولاية: «ياقوم! من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم كيف لا يدعي الملك بعد كافور؟»

وحينئذ فماذا كان يصير لو نجح المتنبي في مطلبه؟

إن الدولة العربية كانت قد شاخت في زمنه وتمكن الضعف منها فصارت هامة اليوم أو الغد، وقد رأى هو أن العرب أصبحت تدين للعجم بالطاعة وذلك أمر ليس من صالحهم في شيء:

وإنما الناس بالملوك وما تصلح عُربٌ ملوكها عجمُ

وأن المسلمين أصبحوا في كل جهة عبيد العصا يسوقهم المتغلب أمامه كما يسوق الراعي قطعان الماشية:

سادات كل أناس من نفوسهم
وسادة المسلمين الأعبد القزم

وقد صار أمرهم مع المشركين بين العجز عنهم والرهب منهم:

أرى المسلمين مع المشركين إمّا لعجز وإما رهب

فإذا قلنا إنه لو نجح في مطلبه لكان ذلك من الخير للعرب والإسلام. لم يكن في قولنا هذا شيء من المبالغة لأن الرجل كان قوة هائلة لا تقف عند حد ولا ترجع عن قصد، فكان ينفخ من روحه في جسم الدولة المتهالك ويهيب بالأمة إلى حياة المجد والعظمة فما يكون بأسرع منها إلى الاستجابة له والإقبال عليه صادعة بأمره صادرة عن قوله:

لا افتخار إلا لمن لا يضام مدرك أو محارب لا ينام
ليس عزماً ما مرّض المرء فيه ليس هماً ما عاق عنه الظلام
واحتمال الأذى ورؤية جانيـ ـه غذاء تضوى به الأجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش رب عيش أخف منه الحمام

(طنجه) عبد الله كنون الحسني

(1) لأنا نرجح أن نسبة ذلك لكافور لا تصح